البداية عهد وميثاق

﴿ يَأَيُّهَا الَّذينَ آمَنوُا هَل أَدُلُّكُم عَلَىٰ تجَارةٍ تُنجيكُم مِّنْ عَذابٍ أليم تُؤمنوُنَ باللهِ وَرَسولِهِ ، وتُجَاهدُونَ في سَبيل الله بأَموَالكُم وَأَنفُسكُم ، ذَلكُمَ خَيرٌ لَّكُم إِنْ كُنُتم تَعلَموُنَ ، يَغفر لَكُم ذُنوُبكم وَيُدخِلكُم جَنَّات تَجرى من تَحْتِها الأنهَارُ .. وَمَسَاكنَ طَيِّبَة في جَنَّات عَدن ، ذَلكَ الفَوزُ العَظِيمُ ، وَأُخرىٰ تُحبُونَها نَصرٌ مِّنَ الله وَفَتحٌ قَريبٌ ، وَبَشِّر المُؤمِنِينَ ﴾ .

(سورة الصف الآيات : ١٠ ـ ١٣)

من القواعد التى جرى عليها رواد طرق التجارة وأدلاء القوافل أن الرائد أو الدليل إذا أحس أنه ضل طريقه وخاف الهلكة ، فعليه أن يعود بقافلته إلى نقطة البداية ليبدأ السير من جديد ، فإذا لم يفعل هذا ضاع وأضاع من معه ، وهذا هو ماسنفعله الآن .

فقد رأينا أن قافلة الأمة ضلت الطريق . واعتسفت سكة بعيلة عن سكة الإسلام ، وانتهت ـ تبعاً لذلك ـ إلى غاية لم يقصد إليها الإسلام . فالإسلام صراط أو طريق مستقيم يؤدى رأساً إلى مجتمع العدل والأمن والأمان والرخاء ، وكل ماتضعه عادة تحت عبارة « سعادة البشر » ، فإذا لم تصل الأمة إلى هذه الغاية فمعنى هذا أنها خرجت عن هذا الطريق ، فوصلت إلى غاية غير تلك الغاية .

فى موضوع خطير كهذا لا يجوز أن نرد الانتكاس الخطير الذى أوجزنا وصفه آنفاً إلى « نسيان الأمة دينها وانصرافها عن عباداتها من صلاة وصوم وزكاة » . فهذا كلام وعاظ مساجد يبيعون للناس كلاماً على قدر الرواتب التى يتقاضونها .

فليس صحيحاً أن الناس فى عصرنا هذا ، أو حتى فى عصور الظلام الماضية كانوا أبعد عن الدين وأقل حرصاً عليه مما يسمونه « السلف الصالح » فليس هناك سلف صالح وخلف طالح ، إنما هى أجيال من البشر يتوالى بعضها فى أثر بعض ، وفى كل جيل صالح وطالح ، وفى كل جيل ناس أهل دين وتقى ومكارم أخلاق ، وناس أهل فساد وإفساد وأهل فجور وعدوان ، وبين هذين الطرفين عرفنا اليوم ـ والأمس وقبل الأمس ـ جميع ألوان الطيف من فوق البنفسجى إلى تحت الأحمر . . وهناك دائماً طوائف تعتدى على الدين وتقارف الإثم جرأة على الله سبحانه أو طمعاً فى عفوه وسبحانه غفور رءوف بعباده وهو غافر الذنب وقابل التوب .

* * *

وهذا حق حتى فى أيام الرسول صلوات الله عليه . وأمامنا سورة « براءة » وهى أيضاً سورة التوبة ـ وهى التاسعة فى ترتيب المصحف ولكنها فى الحقيقة من أواخر ماانزل على رسول الله ﷺ من سور القرآن ، بل الغالب أنها آخر ماأنزل فقد نزلت على أثر غزوة تبوك ، وتبوك بدأت فى أواخر رجب عام ٩ للهجرة وانتهت أوائل رمضان (أكتوبر ـ ديسمبر ٦٣٠ م) ولم تكن على الحقيقة غزوة بل محنة وامتحاناً للأمة ، ولهذا تسمى غزوة العُسْرَة والعسرة نار تصهر معادن الناس فيتبين المعدن من الخبث ، ثم جاءت سورة براءة بنتيجة الامتحان فبدأت آياتها

تنزل على الرسول عقب العودة من الغزاة أى بعد الامتحان ، وظل المسلمون يترقبون نزول آياتها كما يترقب الطلاب نتيجة الامتحان وقلوبهم وجلة أشد الوجل وكل منهم يخشى أن تنزل آيات تكشف نفسه وماكان يخفيه عن الناس ، ولهذا قال حذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة إنما هى سورة العذاب . . وتسمى أيضاً الباحثة والفاحصة والفاضحة والمتكلة ، لأنها كانت على الحقيقة أشعة سينية نفذت فى كيان مجتمع المدينة أواخر أيام الرسول صلوات الله عليه وكشفت حقيقته كاملة .

ولهذا فهى ـ بالنسبة لنا معاشر المؤرخين ـ سورة حاسمة ، فقد نزلت بعد فتح مكة وكان عامة المسلمين يرون أن فتح مكة هو غاية الإسلام القصوى وباع بعض المسلمين سلاحه وقال : قد انقطع الجهاد فجاءت هذه السورة تقول : لا ياأمة الإسلام لم ينقطع الجهاد . . بل بدأ جهاد النفس أولاً لإصلاحها وإعادتها إلى جادة الإسلام وإلى طريقه وصراطه ، وجهاد الناس ومواصلة الفتوح حتى يكون الدين كله لله .

وقد قرأت هذه السورة مرة بعد أخرى ، وقرأت كل ماقيل فيها وعنها وأنشأت عليها دراسة أرجو أن يعيننى الله فتنشر على الناس ، ويذهب معظم المفسرين إلى أنها هتكت أسرار المنافقين فحسب ، ولكن الحقيقة أنهاكشفت عن حال أمة الإسلام كلها فى نهاية المرحلة الأولى من مراحل بنائها : مرحلة الإنشاء والتكوين وبناء الأساس ، ليعرف المسلمون حقيقة أمرهم ويصححوا مسارهم قبل أن يدخلوا فى المرحلة الثانية ، مرحلة نشر الدعوة خارج جزيرة العرب ، ولهذا يروى الواقدى فى مغازيه أن رسول الله ﷺ عندما وصل تبوك أخذ حجراً ووضعه على حدود الجزيرة وقال : هذا يمن وأشار إلى الجنوب ، وهذا شام وأشار

إلى الشمال ، ومعنى هذا : ذلك هو ماتبينوه إلى الآن ، وذاك ماعليكم الآن أن تفعلوه .

واقرا معى على سبيل المثال هذه الآيات من براءة : ﴿ **وَمنهُم مَّن عَاهَدَ الله لَئن آتـانَـا منَ فَضله لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكوُنَنَّ منَ الصَّالحينَ . فَلَمَّا آتاهُم مّن فَضله بَخلُواْ به وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرضُونَ . فأَعْقَبهُمْ نفَاقاً فى قُلوبهم إلَى يَوم يَلقَونَهُ بمَا أَخلَفُواْ الله مَاوَعدوهُ وَبمَا كَانوا يَكذبُونَ . أَلَم يَعلَمُواْ أَنَّ الله يَعلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجوَاهُم وَأَنَّ الله عَلاَّمُ الغُيُوب** ﴾ . (التوبة الآيات : ٧٥ ـ ٧٩) .

فهؤلاء قوم من المؤمنين الذين عاهدوا الله على الصلاح والتقوى والإنفاق مما يرزقهم الله فى سبيل الله فلما آتاهم الله ماوعدوا نقضوا وعدهم وبخلوا بمالهم غافلين عن أن الله سبحانه يعلم سرهم ونجواهم .

بل من أولئك المؤمنين من بلغ بهم الجحود أن ينالوا من الرسول بألسنتهم وفيهم تقول « براءة » :

﴿ **وَمنهُمُ الّذيَن يُؤذونَ النَّبىَّ وَيَقولونَ هُو أُذُنٌ قُل أُذُنُ خَير لَّكُم يُؤمنُ بالله وَيُؤمنُ للمؤمنينَ وَرَحمَةٌ لّلَّذيَنَ آمَنُواْ منكُم وَالَّذين يُؤذونَ رَسُولَ الله لَهُم عَذابٌ أَليمٌ ، يَحلفُونَ بالله لَكُم لِيُرضُوكُم وَالله وَرَسُولُهُ احَقُّ ان يرضُوهُ إن كَانُوْا مُؤمنِينَ** ﴾ . (التوبة الآيتان : ٦١ ـ ٦٢) .

بل كان من أولئك الناس قوم كانوا يخوضون ويلعبون : ﴿ **وَلَئن سَالتَهُم لَيَقُولُنَّ إنَّمَا كُنَّا نَخوضُ وَنَلعَبُ قُل أبالله وَءَآياته وَرَسُوله كُنتُم تَستَهزئُونَ لاَ تَعتَذرُواْ قَد كَفَرتُم بَعدَ إيمانكُم إ ن نَّعْفُ عَن طَآئفَة مّنكُم نُعَذّب طَآئفَة بأنَّهُم كَانُواْ مُجرمينَ** ﴾ . (التوبة الآيتان : ٦٥ ـ ٦٦) .

وهذا كله كان فى حياة الرسول صلوات الله عليه .

نقول هذا لكيلا نجرى فى طريق أولئك الذين يصورون الأجيال السابقة على أنها كانت كلها صالحة يسير أهلها على الجادة لا يكادون يقعون فى خطأ فهذا - مرة أخرى - هو أسلوب الوعاظ ومن جرى مجراهم من أهل العلم فى الأجيال السالفة ممن حولوا الدين والكلام فى الدين إلى معلبات بل إلى معتقات والعلم لا يصلح أمره مع التعليب أو التعتيق لأنه لابد أن يكون جديداً دائمًا حياً أبداً نابعاً من الحياة وصاباً فيها .

والذى أريد أن أقوله هو أننا ينبغى أن نتحرر من تلك المأثورات التى توقف الذهن وتشل حركته وتجهد فى ربط الفكر بالأمس فيظل نظر صاحب العلم ناظراً إلى الخلف مع أن العلم فى صميمه كشف للمجهول ونظر دائم إلى الأمام . .

ومادمنا قد عدنا بالقافلة إلى أول الطريق لنسير من جديد فلنكن صادقين مع أنفسنا ومع من نكتب لهم لكى نفيد ويفيدوا وتتحول علوم الدين من علوم الماضى إلى علوم اليوم والغد وبعد الغد . .

وحسبنا إلى الآن خداع النفس وتزوير الماضى حسباناً منا أن ذلك يصلح الحاضر والمستقبل مع أننا نعلم علم يقين أنه لا يصلح مع التزوير شىء . .

وتلك هى عبرة سورة « براءة » . . . فقد كان الدين جديداً على الناس إذ ذاك وكذلك كانت غاياته فمضى الكثيرون منهم على سنن ماكانوا عليه حاسبين أن رسالة الإسلام تمت بفتح مكة وأنه لا تثريب عليهم أن يفعلوا مايشاءون ، وأن الأمة تستطيع المسير وفيها منافقون وكذابون وضعاف ومستهزئون فأتت السورة وكأنها سوط عذاب ينبه الغافل ويوقظ الجاهل وينذر السادر فى غيه لتصحيح المسيرة ورد المسلمين إلى جادة الإسلام وصراطه المستقيم ، والإسلام هو دين الله القيم أى دينه القائم إلى آخر الزمان ، وأمة الإسلام هى حاملة

رسالته فينبغى أن تكون متيقظة لنفسها أبداً ، وإذا كانت سورة « براءة » قد نفعت أمة الإسلام أيام الرسول فهى تنفعها فى كل عصر ومكان والناس هم الناس فى كل عصر فيهم الصالح وغير الصالح . . . لا يختلف فى ذلك منهم جيل عن جيل . . .

ولقد انتفعت أمة الإسلام من سورة « براءة » فاستقام أمرها وصلح أمر الكثيرين عليها ، ولكن كان لابد من زمان طويل حتى تستقيم البقية وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى زلزلت جماعة الإسلام زلزالاً شديداً لولا أن عصمها الله بنفر ممن وعت قلوبهم الإسلام وعياً تاماً فاستطاعت أن تحفظ الأمة من الضياع ومن أكبر الأدلة على ذلك خبر رواه أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك وأورده الحافظ بن كثير فى تفسيره وأبو بكر بن العربى فى « العواصم من القواصم » قال أنس : « لما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء قال ومانفضنا عن رسول الله الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا » قال أبو بكر بن العربى فى « العواصم من القواصم » وهكذا رواه الترمذى : وابن ماجة وقال الترمذى هذا حديث صحيح غريب وقال ابن كثير وإسناده صحيح على شرط الصحيحين . . .

وإذن فلم يكن هناك زمان من تاريخنا الإسلامى كان كل الناس جميعاً فيه ملائكة أطهاراً ، وهذه سورة « براءة » تبين ذلك بأجلى بيان ، وعندى من التفاصيل وأقوال المؤرخين كثير جداً ولكننى التقيت هنا بكلام الله سبحانه لأنه قاطع مانع ولا يمارى فيه أحد . . .

لكن ماالذى نجا بأمة الإسلام وعصمها وردها إلى الجادة ؟ . . . الذى نجا بأمة الإسلام أن أولى الإيمان والعزم فى عصر النبى ﷺ كانوا أضعاف أهل الضعف والنفاق والشك والريبة ، وكان إيمان الواحد منهم مع ذلك يهز الجبال وهم الذين وقفوا كالأطواد وعصموا الأمة من الضياع بإيمانهم واتحادهم وبما قبسوا

من سنة الرسول فقهروا أعداء الدين ، وقد ذكر الله سبحانه فى سورة « براءة » نفسها أولئك المؤمنين الصادقين فى قوله :

﴿ وَالمؤمنونَ وَالمُؤمنَاتُ بَعضُهُم اولِيَآء بَعض ، يَامُرونَ بالمعَروف وَيَنهَونَ عَن المنكَر ، وَيُقيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطيعُونَ الله وَرَسُولَه اولَئكَ سَيَرحَمُهُمُ الله . إنَّ الله عَزيزٌ حَكيمٌ . وَعَدَ الله المؤمنينَ وَالمؤمنَات جَنَّات تَجرى من تَحتها الأنهَارُ خَالدينَ فيهَا وَمَسَاكنَ طَيبة فى جَنَّات عَدن وَرضوانٌ مّنَ الله اكبَرُ .. ذَلكَ هُوَ الفَوزُ العَظيم ﴾ .

(الآيتان : ٧١ ـ ٧٢)

وتزيد السورة ذلك بياناً فتقول فى الآية ٨٨ : ﴿ لكَن الرَّسولُ وَالَّذين آمَنوا مَعَهُ جَاهَدُوا باموَالهم وَانفُسهم وَأُولَئكَ لَهُمُ الخَيراتُ وَاولَئكَ هُمُ المفلحُونَ ﴾ .

وضع ماشئت من الخطوط تحت . . لكن الرسول والذين معه . . الآية .

لأن هؤلاء هم الذين أنقذوا الإسلام .

وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء المؤمنين الصادقين فى الآية الأخيرة من سورة الفتح :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسولُ الله وَالَّذينَ مَعَهُ اشدَّآءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مّنَ الله وَرضوَاناً ﴾ . . فلم يكن كل من عاصر رسول الله ﷺ معه على النحو الذى تصفه الآية . وليس كل من صحب الرسول بصحابى ، فقد صحبه ناس كثيرون دون أن يكونوا « معه » ودون أن يكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم .

هؤلاء الذين عصموا الإسلام هم الذين زادنا الله بهم تعريفاً فى قوله فى سورة الأحزاب : ﴿ **مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَاعَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَابَدَّلُواْ تَبْدِيلاً** ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢٣) .

وسنعرف بعد قليل من هم أولئك الذين عاهدوا الله وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وواحد من هؤلاء لم يكتف بأن يكون صادقاً ، بل كان صديقاً ، وهو أبو بكر الذى أنقذ هذه الأمة بإيمانه وصدقه فى الوفاء بالعهد وفهمه التام للإسلام فقد وقف وحده عندما ارتدت العرب . حتى عمر عجب من تشدد أبى بكر فى موضوع الزكاة وقال لأبى بكر « علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « **امرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها** » .فقال أبو بكر كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على منعها . إن الزكاة حق المال . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

ذلك أن أبا بكر بصدق إيمانه وبما قبس من شمائل الرسول أدرك أن الإيمان كتلة واحدة . فإذا نحن فرطنا فى جزء اليوم فسنفرط فى جزء آخر غداً وجزء ثالث بعد غد ، وهكذا إلى أن ينفرط العقد كله ويضيع الإسلام كله .

وقد فهم أبو بكر موضوع توقف الكثيرين من الأعراب على أنه نقض لعهد الأمة ، لأن الأمة قامت كما سنرى على عقد وعهد . ومادامو قد نقضوا جانباً من العهد فقد انتقض العهد كله ، وأصبحوا مرتدين عن الإسلام ، ومادامو قد ارتدوا فلابد أن تعيدهم الأمة إلى رحابها بالقوة ، وقد نجح أبو بكر فأعاد المرتدين إلى رحاب الأمة بل فعل أكثر من ذلك : لقد أرسل هؤلاء المرتدين الذين عادوا إلى الإسلام ليفتحوا الدنيا باسم الإسلام ، وساروا وفتحوا .

لأن أبـا بكـر ومن « معه » كانوا على بينة من أمر الإسلام ومايصلح أمة الإسـلام ، فأمـة الإسـلام قامت على عهد وعقد ، ولا تزال هذه الأمة بخير مااستمسكت بذلك العهد .

فما هو هذا العهد ؟ .

لنرجع إلى الوراء قليلاً لنعرف كيف قامت أمة الإسلام .

* * *

منذ تلقى الرسول ﷺ أوليات آيات القرآن واستوثق من أنه نبى مرسل أدرك أنه لابد لهذا الدين من أمة تتولى أمره ، فقد أمره الله فى الآية ٦٧ من سورة المائدة بإبـلاغ الرسالة وقال : ﴿ **يَاأَيها الرَّسولُ بَلِّغ مَاأُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّم تَفعَل فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَتَهُ وَالله يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ .

وفى الآية ٩٩ من نفس السورة نقرأ : ﴿ **مَّاعَلَى الرَّسُول إِلَّا البَلاغُ وَالله يَعلَمُ مَاتُبدُونَ وَمَاتَكتُمونَ** ﴾ .

وقد أدرك الرسول أن البلاغ لا يراد به مجرد إيصال الرسالة إلى الناس ، أى هو مجرد تبليغ ، فإن هذا التبليغ أو الإيصال لا يكلف جهداً أو مشقة إنما الذى يكلف الجهـد والمشقة ويقيم أمر الدين هو البلاغ بعد التبليغ ، أى الوصول بالـرسـالة إلى غايتها بإنشاء أمة من المؤمنين الصادقين ، وهذه الأمة هى التى يتصور بها الدين حقيقة نافعة للبشر ، وهل يمكن أن يكون هناك دين له فاعلية دون أن يكون هناك مؤمنون به ؟ إذن فلابد من إنشاء أمة الإسلام .

وهذه الأمة لا ينبغى أن تكون كياناً سياسياً يخدم غايات سياسية، بل لابد أن تكون بناء دينياً اجتماعياً خلقياً يخدم غايات إنسانية نابعة من هذا الدين القيم

« القائم الدائم » لتكون هى آخر أمة قيمة تدوم دوام الدهر وتتسع لبنى آدم أجمعين ، وتلك كانت الغاية التى أنفق محمد رسول الله ثلاث عشرة سنة من عمره ليحققها فى مكة .

ولو أن محمداً اكتفى كغيره من أنبياء الله ورسله بتبليغ الرسالة لما كانت به حاجة إلى جهد ولا نصب ، لأنه خلال العام الأول من الرسالة ، وقبل دخوله دار الأرقم كان قد أبلغ الرسالة ، وجمع حوله طائفة طيبة من الأتباع لم يوفق إلى مثلها نبى مرسل قبله ، فعيسى مضى إلى ربه مخلفاً وراءه حفنة من الحواريين لا يبلغون نصف الجماعة التى كسبها محمد للإسلام قبل أن يدخل دار الأرقم ويدعو فيها ، وموسى لم يصبر حتى يكسب فرعون وآله لرسالته ، بل اكتفى بقومه من بنى إسرائيل ومضى خارجاً من مصر ، وإبراهيم لم يكسب لدعوته إلا فئة قليلة من الناس ، ومضى إلى ربه فتفرقت من بعده بُدَداً غير هذا كله أو وراء هذا كله كان مطلب محمد لم يكتف بالتبليغ بل أصر على البلاغ .

والبلاغ عنده كان تحويل قريش كلها إلى جماعة الإسلام وتوجيه الجماعة القرشية المسلمة إلى كسب العرب جميعاً . وكان رسول الله ﷺ يرى فى قريش من المواهب والملكات والخصائص ماهو قمين بأن يعينه على البلاغ الأكبر ، وهو إدخال البشر جميعاً فى دين الله .

ولكن الغالبية الكبرى من القرشيين لم تفطن إلى الغاية الكبرى التى كان محمد يدعوها إليها . وأبو جهل ـ ممثل المجتمع العربى قبل الإسلام ـ لم يستطع عمره كله أن يرى فى محمد إلا رجلاً من بنى هاشم بن عبد المطلب يريد أن يجدد رياسة بيت عبد المطلب ، وينتزع القيادة والرياسة ممن غصبوها بقوة المال والقدرة العسكرية من بنى أمية بن عبد شمس وبنى مخزوم بن يقظة وبنى أسد بن عبد العزى بن قصى وبنى سهم بن جمح وبنى عمرو بن هصيص وبنى تيم بن مرة . كان أبو جهل يرى نفسه سيد هذه القيادة الملكية القائمة على أموال التجارة المكية

من ناحية والقوة العسكرية التى تجلت فى الدور الأخير من حرب الفجار التى انتصرت فيها قريش على قيس عيلان كلها بقيادة العقابس والأعباس وهم عترة عبد شمس بن عبد مناف الذين فاقوا بنى عمومتهم أبناء عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف .

وهذا الحلف الضخم من الأغنياء الأقوياء ، هو الذى وقف فى سبيل الدعوة وانتهى فى السنة العاشرة للهجرة إلى إيقاف تقدم الدعوة فى مكة توقفاً تاماً .

وكانت غاية محمد الكبرى هى تحويل هذا الحلف الضخم إلى قاعدة للإسلام وكان هذا مستحيلاً ، لأن قادة الحلف أنفسهم لم يروا قط الغايات السامية البعيدة التى تنتظرهم من وراء الاستجابة للدعوة ، فوقفوا حيالها جامدين ، وهذا بالضبط هو ماعبرت عنه الآية ٢٣ من سورة الجاثية أدق وأصدق تعبير حيث قال رب العزّة : ﴿ **أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهدِيهِ مِن بَعدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ .

ولكن لا سبيل إلى الاكتفاء بالتبليغ دون البلاغ ، وبعد محاولة غير موفقة مع سادة الطائفة بعد اتصالات ببعض الأحلاف القبلية الأخرى . كان اللقاء مع رجال يثرب ، وإن الإنسان ليعجب من دأب الرسول على الوصول إلى الغاية العليا .

كانت السنوات الثلاث التى أعقبت موت عبد المطلب وخديجة سنوات جد قاسية على رسول الله ﷺ ومع ذلك فما قعد عن الدعوة والسعى إلى إنشاء الأمة يوماً ، ماسمع بقوم وافدين على مكة إلا أسرع إليهم ومأأشد ماكان يلقى من معظم أولئك الناس حتى إن بعضهم حثا التراب فى وجهه ، ومع ذلك فلم تضعف له عزيمة ، وكان لابد أن يوفق . ولم يكن اللقاء مع أهل يثرب وتوفيقه

معهم مصادفة ولا ضربة حظ فمثل هذا الرسول المؤمن الدؤوب لابد أن يصل إلى مايريد .

* * *

وفى سنة ٦١١ م (٢ قبل الهجرة) كانت بيعة العقبة الأولى وفى عام ٦١٢ م . (خلال عام ١ قبل الهجرة) كانت بيعة العقبة الثانية ، والعقبة الثانية هى بداية قيام أمة الإسلام ، ودع عنك ماتذكره الروايات من أن العباس بن عبد المطلب كان هو الذى خرج مع محمد للقاء وفد أهل يثرب ممن اجتذبتهم الدعوة المحمدية عندما تحدث إليهم محمد فى العقبة الأولى . فما كان العباس - وهو إذ ذاك وثنى مشرك - بالذى يتحدث باسم محمد ، ولا يستقيم بحال أن يقال إن العباس تحدث باسم بنى هاشم قوم محمد ، فما كانت دعوة الإسلام عصبية قبلية حتى يأذن محمد فى أن يتحدث عنه رجل من أهل عصبيته ، ثم إن محمداً كان أعلى مقاماً ومكانة فى بنى هاشم من العباس بن عبد المطلب ، فكيف يتحدث الأدنى باسم الأعلى ؟ وإذا كان ولابد من رجل أو ناس من بنى هاشم فأين منها حمزة ، وهو كان أكبر مقاماً من العباس ، وعندما أسلم حمزة ارتجت قريش كلها لإسلامه . . . هذه إضافات لحقت السيرة أيام بنى العباس ، وهى كانت بعض وسائلهم فى إضفاء الشريعة على خلافتهم .

والأقرب إلى العقل أن يتحدث محمد رسول الله عن محمد رسول الله ، وهذا هو الذى حدث ، ويستوقف نظرنا أن محمداً ، وهو الباحث عن قوم يقيم فيهم وبهم الدعوة ، يتحدث إلى أولئك الناس حديث السيد الذى يعرف مايريد ، فهو لا يطلب الحماية أو المأوى إنما هم أهل يثرب أنفسهم هم الذين سمعوا إلى

قول الرسول ﷺ وأطاعوه ، وهذا هو البراء بن معرور يخاطب الرسول - لا العباس ويقول : تكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ماأحببت ؟ .

ومن يقرأ هذا الكلام لا يحس أنه أمام رجل يبحث عن حماية إنما يحس أنه أمام رجل يخاطب مؤمنين به ويسألهم إن كانوا قادرين على القيام بأمر دعوته ، أى أنه منذ اللحظة الأولى كان يريد أن يعقد عهداً موثقاً (بيعة) مع قوم لا يكتفون بالدخول فى الإسلام ، بل يعاهدون صاحب الرسالة على أن يؤكدوا ماالتزموا به فى العقبة الأولى من الإيمان بالله الواحد « على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، فإن وفيتم فلكم الجنة » . ويتعهدوا إلى جانب ذلك بأن يقوموا بحماية هذه الدعوة . وعندما نسمع رسول الله يقول : « على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فإننا ينبغى أن نفهم من ذلك أن المراد بالمنعة هنا هو الإسلام نفسه . لأن محمداً لم يكن يبحث عن قوم يعيش آمناً فى كنفهم فى سكون . وإذا كان مجرد الأمن هو مطلبه ففيم الهجرة وفيم طلب المنعة ، وقريش كلها ترجوه من أكثر من عشر سنوات أن يكف عن الإصرار على إدخالهم فى الإسلام ويدعوه آمنا ماشاء . .

وإذا كان هؤلاء القوم أتوا ليؤكدوا لمحمد أن الكثيرين من قومهم مالوا إلى دعوته ، فلماذا لم يذهب معهم دون عقد أو عهد ؟ ولم يكن فى تقاليد العرب فى الجاهلية مايتطلب عقداً أو عهداً لكى يجير قوم رجلاً . كان يكفى أن يقول واحد من القوم إنه يجيره . بل كان يكفى أن يمس الرجل طنب الخيمة حتى يحق له الجوار ، ويكون المجير ملزماً فى هذه الحالة بمنعه مما يمنع منه أهل بيته .

وإذن فما الذى كان الرسول ﷺ يسعى إليه فى هذا اللقاء ؟ الذى كان يريده هو عقد عهد وميثاق بين الدعوة التى يحملها وأولئك الذين يعرضون أن يدخلوا فيها ويقوموا بحمايتها ، أى الذين يتصدون لكى يكونوا أمنها وقاعدتها .

واستمع إلى البراء بن معرور يتحدث باسم أهل يثرب بعد أن تلا محمد القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام « نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا يعنى نساءنا وأهلنا ـ وكانت تلك عبارة تقليدية فى مثل هذه العقود ثم يقول البراء بن معرور : فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر » .

وهذا ماكان محمد رسول الله ﷺ يطلبه : عقد واتفاق أو عهد أساسى بين الإسلام وبين من يريدون أن يكونوا أمة الإسلام . كان يطلب عهداً وميثاقاً شرعياً بين الإسلام ورجال أمة الإسلام ، بعبارة أخرى : كان لا يريد أن ينتقل إلى أولئك الناس إلا على شريعة أى دستور متفق عليه من الجانبين .